أحاديث الإيمان

أحاديث الإيمان

(27)

**حديث احفظ اللَّه يحفظك**

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

**أمَّا بعد:**

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا ، فَقَالَ : ((يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)) رواه الترمذي.

هذا حديث جليل الشأن مشتمل على وصايا عظام جمعت خيري الدنيا والآخرة، وهو أصل عظيم في مراقبة الله، وحفظ حقوقه، وتفويض الأمور إليه، وحسن التوكل عليه، وتحقيق توحيده ، ومعرفة تفرده بالتدبير، وعجز الخلائق كلَّهم وافتقارهم إليه. قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين ، حتى قال بعض العلماء : تدبرت هذا الحديث ، فأدهشني وكدت أطيش ، فوا أسفى من الجهل بهذا الحديث ، وقلة التفهم لمعناه ".

وقد كان ابن عباس حين حدثه النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث صغيراً لم يبلغ الحلم.

وهو حديث جامع ينبغي على كل مسلم أن يُعنى به حفظاً وفهماً وعملاً ليسعد في دنياه وأُخراه، وكثير من الأخطاء التي يقع فيه الناس ناشئة عن الجهل بهذا الحديث العظيم ونظائره من الأحاديث التي تُقرر أصول الاعتقاد، وتبين أساس الدين، وتصل الناس بالله تبارك وتعالى اعتقاداً وإقراراً وثقةً وإيماناً.

وينبغي أن يتعلمه الصغار والكبار على حدٍ سواء، وأن يُعنوا بمعرفته، وينبغي على الآباء وأولياء الأمور والمعلمين في المدارس والمعتنين بالتربية؛ أن يعنوا بإيصال هذه الوصايا النبوية إلى الناشئة ذكوراً وإناثاُ، وأن يغرسوا فيهم هذا الغرس المبارك، وأن يحرصوا على تنشأتهم نشأة الإيمان وحسن الصلة بالله تبارك وتعالى.

قوله: " يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ": أي فاحفظهن، واعتن بهن واحرص على فهمهن وتطبيقهن في حياتك تسعد في دنياك وأخراك.

قوله "احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ" وهذا عنوان سعادة العبد في هذه الحياة وأساس فلاحه في الدنيا والآخرة أن يكون حافظاً لحدود ، محافظاً على أوامر، حافظاً نفسه في طاعة الله ؛ فإن من حفظ الله حفظه الله ، ومن اتقى الله وقاه.

وحفظ الله يعني حفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه ، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب ، وعند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به وأذِن فيه إلى ما نهى عنه ، فمن كان كذلك فهو من الحافظين لحدود الله الذين مدحهم الله في كتابه بقوله عز وجل : ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ [ق:٣٢-٣٣] ، وقد فُسِّر الحفيظ هنا : بالحافظ لأوامر الله ، وبالحافظ لذنوبه ليتوب منها.

ومن أعظم ما يجب حفظه من أوامر الله الصلاة ؛ فإنها عماد الدين وأعظم أركانه بعد الشهادتين ، وقد أمر الله جل وعلا بالمحافظة عليها فقال : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ [البقرة:٢٣٨] ، ومدح المحافظين عليها بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المعارج:34] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم ((خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ)) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم ((مَنْ حَافَظَ عَلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ )) .

ومما أمِر المسلم بالمحافظة عليه الطهارة ؛ فإنها مفتاح للصلاة قال النبي صلى الله عليه وسلم ((لَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ )) .

ومما يؤمر بحفظه : الأيْمان قال الله تعالى: ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ [المائدة:٨٩] ؛ فإن الأيمان يتهاون الناس فيها كثيرا.

ومن ذلك حفظ الرأس والبطن كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (( الِاسْتِحْيَاءَ مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى)) خرجه الإمام أحمد والترمذي ، و "حفظ الرأس وما وعى" يدخل فيه حفظ السمع والبصر واللسان من المحرمات و "حفظ البطن وما حوى " يتضمن حفظ القلب عن الإصرار على المحرمات قال الله عز وجل : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة:٢٣٥] ، وقد جمع الله ذلك كله في قوله : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء:٣٦] ، ويتضمن ذلك أيضا حفظ البطن من إدخال الحرام إليه من المآكل والمشارب .

ويدخل في ذلك كذلك : حفظ اللسان والفرج ؛ ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ لِحْيَيْهِ وَرِجْلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّة)) خرّجه الحاكم. وخرج الإمام أحمد من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ فُقْمَيْهِ وَفَرْجَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ )) ، وأمر الله عز وجل بحفظ الفروج ومدح الحافظين لها فقال : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠] ، وقال الله عز وجل: ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٣٥] ، وقال الله عز وجل : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ إلى أن قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون:٥-٦] .

ومن حفظ حدود الله وراعى حقوقه حفظه الله ؛ فإن الجزاء من جنس العمل . وحِفْظ الله للعبد يدخل فيه نوعان:

أحدهما: حفظه له في مصالح دنياه ، كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله قال الله عز وجل : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد:١١] ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : " هم الملائكة يحفظونه بأمر الله ، فإذا جاء القدر خلَّوا عنه " وقال علي رضي الله عنه : " إن مع كل رجلٍ ملَكين يحفظانه مما لم يُقدَّر فإذا جاء القدر خلَّيا بينه وبينه ، وإن الأجل جُنّة حصينة " .

والنوع الثاني من الحفظ وهو أشرف النوعين: حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه ؛ فيحفظه في حياته من الشّبهات المضلة ومن الشهوات المحرمة ، ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإيمان ، ومن هذا القبيل ما ثبت في حديث عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم علَّمه أن يقول : (( اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَاعِدًا، وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَائِمًا، وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ رَاقِدًا، وَلَا تُطِعْ فِيَّ عَدُوًّا حَاسِدًا )) خرجه ابن حبان في صحيحه .

وثبت في سنن أبي داود وسنن ابن ماجه وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يدَعُ هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح (( اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي )) .

" احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ " وفي رواية : (( أمامك )) أي تجده معك حيث توجهت يحوطك وينصرك ويحفظك ويوفقك ويسددك ويدلك إلى كل خير ويقربك إليه ويهديك إلى صراطه المستقيم، ومن لازم ذلك أن يمنع عنك الشر.

قوله "إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ " فيه أمرٌ بالإخلاصِ لله تعالى في السؤال والاستعانة بأن لا يُسأل إلَّا الله، ولا يُستعان إلَّا به، وهذا أمرٌ متعيِّنٌ على كلِّ مسلم؛ «لأنَّ السؤالَ فيه إظهارُ الذُّلِّ من السائل والمسكنةِ والحاجةِ والافتقارِ، وفيه الاعترافُ بقُدرةِ المسؤول على دفع هذا الضررِ ونيلِ المطلوب وجلبِ المنافعِ ودرءِ المضارِّ، ولا يصلحُ الذُّلُّ والافتقارُ إلَّا لله وحده؛ لأنَّه حقيقةُ العبودية»

والجمع بين السؤال والاستعانة جمع بين الغاية والوسيلة كما في قوله تبارك وتعالى {إياك نعبد وإياك نستعين}؛ فإياك نعبد: غاية؛ كما قال تعالى {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}. وإياك نستعين: وسيلة، فلا يمكن أن تتحقق الغاية ــ التي هي العبادة ــ إلا بهذه الوسيلة وهي عون الله ، وإذا لم يكن عونٌ من الله لم يستطع العبد أداءها. كان الصحابة يقولون: لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا؛ والله جل وعلا يقول {ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشآء}، ويقول سبحانه {ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة}.

قوله "وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ " بعد أن ذكر أن السؤال لله وحده والاستعانة بالله وحده؛ أخبر أن كل شيء بيده، وأن لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وأن كل شيء لا يخرج عن إرادته ومشيئته، وأن العباد لايمكنهم أن ينفعوه بشيء لم يقدره الله ولا أن يضروه بشيء لم يقدره الله، وأن كل شيء يقع أو لا يقع سبق به القضاء والقدر؛ ولهذا قال " رُفعت الأقلام وجفت الصحف " أي أن كل كائن قد فُرغ منه وكُتب ولا بد من وقوعه كما كتب ، والمراد برفع الأقلام وجفاف الصحف الانتهاء من كل شيء مقدر بكتابته في اللوح المحفوظ فلا بد أن يقع وفقاً لما قُدر.

قال الله تعالى {ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده}، وقال تعالى { وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ } وقال تعالى {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشآء وتنزع الملك ممن تشآء وتعز من تشآء وتذل من تشآء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير}.

وهذا يدعو العبد إلى أن يكون تعلقه وتوكله بالله وحده وتفويضه لأموره إلى الله وحده إياه يسأل وعليه يتوكل يرجو رحمته ويخاف عذابه، وهو وحده الموفق لا شريك له، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.